

احتفال مصري استثنائي بفيلسوف الجغرافيا

جمال حمدان

مفكر ناصري يرسم تحركات القاهرة بعد 27 عاما على رحيله



إلهام حمدان يمتد ليصل إلى الخطط الاقتصادية للحكومة المصرية، ففي كتابه "قناة السويس.. نبض مصر" الصادر عام 1975، اعتبر القناة مركز النقل الأول عالميا وطالب بتوسيعها لاستيعاب الناقلات العملاقة، وهو ما تم بالفعل في مشروع ازدواج العمر الملاحي.

بنفس المستوى من التركيز والكثافة، وتعلق حمدان بفكر الرئيس الأسبق جمال عبدالناصر بشدة، واعتبره الحاكم الوحيد الذي استطاع إبراز أهمية القوة الجغرافية لمصر، فالناصرية، عنده، هي المصرية كما ينبغي أن تكون، فحتى لو انفصلنا عن جمال عبدالناصر أو رفضناه كشخص أو كإنسان، لكن كل حاكم بعده لم يملك أن يخرج عن الناصرية، ولو أراد لأنهم بالخروج عن المصرية وأصبح مفرطاً من هذا المنطلق، كان الراحل شديد المعارضة لسياسات الرئيس الأسبق أنور السادات حتى أنه اعتبر اتفاقية "كامب ديفيد" نهاية زعامة مصر العربية، وانتقد بشدة سياسة الانفتاح الاقتصادي في هجومه المطن على الرأسمالية. وتحمل أفكاره تصورا مغايرا عن الحكومة الحالية في ما يتصل بمشروع بناء العاصمة الإدارية الجديدة وهي فكرة ظلت محل جدل بمصر منذ السبعينات وحتى الآن، فكتابه "القاهرة"، يبدو شديد الممانعة لفكرة العواصم الجديدة في ظل عراقية العاصمة التقليدية وتاريخها الطويل.

الحكم وعبيد الإحسان

ربما تكون مشكلة حمدان، التي جعلته معزولا ومنعته من الوصول للمكانة التي يستحقها، هي آراؤه الصامدية الواضحة، فبعدما لفت الأنظار إليه من خلال كتبه الثلاثة "جغرافية المدن"، و"المظاهر الجغرافية لمجموعة مدن الخرطوم.. المدينة المنقطة"، و"دراسات عن العالم العربي" التي منحت لها جائزة الدولة التشجيعية عام 1959، استقال من الجامعة احتجاجا على تخطيه في الترقية.

حمل الراحل تصورات عنيفة إزاء نمط الحكم بمصر، فاعتبر أن معظم سلبيات وعيوب الشخصية المصرية تعود أساسا إلى القهر السياسي الذي تعرضت له بشيعة من حكامها عبر التاريخ، وأن حاكمها يتصرف على أنه ولي النعم، أو الوصي على الشعب القاصر الذي هو "عبيد إحسان"، معتبرا أن أخطر عيوب مصر هي أنها تسمح للرجل الصغير بأكثر مما ينبغي، وتفسح له مكانا أكبر مما يستحق، فشرط النجاح والبقاء في وجهة نظره، أن تكون أتباعا لا ابتداء عيا، تابعا لا رائدا، محافظا لا ثوريا، تقليديا لا مخالفا، ومواليا لا معارضا.

كان حمدان زاهدا في الحياة ما يجعل كتاباته تخطئ بالتقدير فلم يغير قناعاته عن التجرد بالكتابة بعيدا عن الإغراءات المالية، فرفض الزواج وتفرغ للبحث العلمي حتى أنه رفض الحصول على جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية عام 1986، لكنه نال وسام الجمهورية من الطبقة الأولى عن كتابه "شخصية مصر" عام 1988، أما جائزة التقدم العلمي من الكويت عام 1992 وكانت قيمتها 12500 دينار كويتي، فقد وزعها على معارفه.

الشعبية الاشتراكية العظمى.. دراسة في الجغرافيا السياسية" يربط مصير مصر وليبيا معا في خندق واحد منذ تاريخ الأسرات الفرعونية، ويستدل بالواجهة المشتركة لحملات الاستعمار على مدار العصور ووحدة المصالح التي جمعتها بدرجة أو بأخرى.

وربما تتبع ممانعة مصر القوية إزاء إرسال قوات تركية إلى طرابلس من ذلك المنطلق، بعدما أكدت أنها "لن تسمح لأحد بالسيطرة على ليبيا التي تمثل مسألة أمن قومي في ظل وجود 1200 كيلومتر حدودا برية مشتركة، بخلاف الحدود البحرية التي تحتاج إلى تأمين على مدار الساعة، وتتكد مصر وحدها مشقة مراقبتها".

تتلاقى أفكار السيسي وحمدان كثيرا إزاء التطرف، فالأخير يرى أن الإسلام السياسي تعبير عن مرض نفسي وعقلي، والجماعات المتشددة عنده وباء دوري يصيب عالم المسلمين في فترات الضعف وهدها هو حكم الجهل لا العلم.

ويرى حمدان أنه لا تناقض بين العلمانية والدين، فكل الأديان علمانية أي دينوية، ويشبه المؤلف الراحل الأحزاب الدينية بالعصابات الطائفية، فمنطقها بسيط وواضح، لأنها في قاع المجتمع فليس لديها ما تخسره،

فإما أن يضعها البشر في مكانة مقبولة أو فليذهب الجميع إلى الجحيم تحت ستار الدين، وهذا عين ما فعله الإخوان بعد ثورة 30 يونيو 2013، حين لجأوا للقتل والإرهاب بعد خروجهم من الحكم.

وارتبطت غزارة إنتاج حمدان بتوصيفه كما يقول محمد حسنين هيكل بـ"مؤرخ ثورة يوليو" لتسكنها رياح القومية العربية دوما، بداية من تناول حركات التحرر الوطني في "استراتيجية الاستعمار والتحرير"، و"العالم الإسلامي المعاصر"، ووضع مصر وجيرانها في كفة واحدة، ليتحدث عن العرب وليبيا والسودان ودول حوض النيل واليهود ودول المتوسط

الاهتمام الرسمي المستجد، بحمدان، قد يكون مرتبطا بتلميح غير مباشر من السيسي، الذي أكد لرؤساء تحرير الصحف الحكومية، في حوار مشترك قبل شهر، أنه يعود من حين آخر لقراءة كتاب «شخصية مصر»، أشهر مؤلفات حمدان وأبرزها

أربع سنوات متواصلة لربطها بالوادي والدلتا، وتسهيل حركة عبور الأفراد والبضائع منها وإليها ليستغرق المرور بالسيارات نحو 7 دقائق فقط، كما أنشأت 26 تجمعا تنمويا، وزعت على الراغبين 10 أفدنة جاهزة للزراعة ومنزلا للإقامة.

حتى على المستوى الخارجي، تتنامى السياسة المصرية كثيرا مع الخطوط التي رسمها حمدان في مؤلفه "مصر وأبعادها الأربعة"، من بناء علاقات متوازنة على المستوى العربي والأفريقي ودول حوض النيل ومنطقة المتوسط دون تغليب أحدها على الآخر، أو القيام بدور الشرطي في التعامل مع دول القارة السمراء.

يرى حمدان أن قارة أفريقيا هي مستقبل الاستثمارات، ما يتطلب وضعها في أولوية السياسة المصرية لصالح الاقتصاد والتنمية والاستفادة من ثرائها بالموارد والخامات والأسواق والعدد الضخم من المستهلكين، وتوقع أن تكون مشكلة مصر المستقبلية في النيل لقدمه من خارج حدودها وارتباطه بتدخل السياسة والأعداء محاولة منعها من الحصول على حقوقها الطبيعية والشريعة في النهر.

يريد الرئيس المصري في كل المحافل الدولية وأخرها القمة البريطانية الأفريقية للاستثمار 2020 بلندن، آراء مشابهة بأن هناك فرصا واعدة للاستثمار تجعل من أفريقيا أحد أهم المقاصد أمام مؤسسات الأعمال الدولية، وأن القارة قائمة بالتاريخ والجغرافيا والحقائق والشباب وبالفرة.

مصر والدول العربية

وتعتبر الحكومة المصرية أن الأولوية لديها هي الحفاظ على الدول العربية من الانهيار وبقاء أمنها واستقرارها، مثلما يقتنع المؤرخ الراحل، الذي اعتبر البعد العربي الآسيوي محورا يوجه مسار القاهرة خارجيا باعتباره علاقة أخذ وعطاء من طرفين تمتاز بالاستمرار، على عكس البعد المتوسطي المرتبط بحركة رأسيه من مركز الثقل العالمي للسياسة الدولية والحضارة العصرية والعلم والتكنولوجيا إلى الدول النامية. ارتبطت مؤلفات حمدان بالتحديات التي تواجهها الحكومة المصرية لبيدو كما لو كان كتبها خصيصا للتوقيت الحالي. ففي كتابه "الجمهورية العربية الليبية"

مع الجغرافيا كعلم ينبض بالحياة والبشر ويتداخل مع التاريخ والأجناس، فجعل مؤلفاته خصبة وثرية ومشوقة للقراءة.

وبعد 27 عاما من وفاته، وجدت كتاباته تبنيا على الصعيد الرسمي ما ينقلها من ساحة المثقفين إلى الجمهور العادي، فكما يقول اللواء عبدالعليم حمدان في فيلم وثائقي بعنوان "مبنى المهجول" بثته الفضائيات المصرية العام الماضي، إن الرئيس السيسي يستعين بكتب شقيقه الأكبر لفهم شخصية المصريين.

الهيئة العامة للكتاب طرحت أيضا موسوعة "شخصية مصر.. دراسة في عبقريته المكان"، المكونة من أربعة أجزاء، بمبلغ إجمالي يناهز تسعة دولارات فقط، تشجعا لقراءة المجموعة التي تمزج بين علم الأجناس والجغرافيا والتاريخ والسياسة والعلوم الطبيعية والإنسانية والتطبيقية، وتنقذ إلى روح المكان لتستكشف عبقريته الذاتية، التي تحدد شخصيته وليس إطاره الخارجي فقط.

تعتبر الحكومة تطوير الشخصية المصرية أحد تحدياتها الأساسية، وتعلن عن خطط ومبادرات تتعلق بتطوير فكر الشباب بما يتناسب مع متطلبات العصر، واعتبرت أن المصريين تم استهداف عقولهم على مدار السنوات الماضية، ما تطلب حينها خطة للنهوض بهم على مستوى تشكيل الوعي والثقافة وعبر المؤسسات التعليمية والدينية.

واهتم منتدى شباب العالم الذي احتضنته مدينة شرم الشيخ في نسخته 2018 و2019 بتلك القضية، واعتمد في جلساته على أفكار حمدان، وميلاء حنا صاحب كتاب "الأعمدة السبعة للشخصية المصرية" والتي تدور في فلك التاريخ بحقه "الفرعونية، اليونانية الرومانية، القبطية والإسلامية"، بالإضافة إلى ثلاثة أخرى ترتكز على الجغرافيا تتعلق بأبعاد الموقع في المحيط "العربي، والأفريقي، والمتوسطي".

الحاجة إلى ثورة نفسية

يتبنى المسؤولون المصريون آراء حمدان حول احتياج مصر إلى "ثورة نفسية" على نفسها ونفسياتها، وتغيير جذري في العقلية والمثل وأيديولوجية الحياة قبل أي تغيير في حياتها وكيانها ومصيرها، فالمأساة الحقيقية في أن مصر لم تتبع الحل الجذري الراديكالي في الأزمات قط، وإنما الحل الوسط المعتدل، أي المهدئات المؤقتة ما يدفعها إلى المزيد من التفاقم.

تردد ذلك التصور إبان تحرير سعر الصرف في نوفمبر 2016، فالحطاب الرسمي اعتبر "التعويم" الذي هوى بالعملة المحلية حينها، القرار الإجراء في التاريخ، والحل الجذري لمشكلات الاقتصاد المزمنة الذي منع الدولة من الانهيار، وثورة على سياسات الحكومات السابقة التي انتهجت مبدأ المسكنات، وترحيل أوجاع الاقتصاد إلى الأجيال اللاحقة.

امتد إلهام حمدان لخطط الحكومة المصرية الاقتصادية، ففي كتابه "قناة السويس.. نبض مصر" الصادر عام 1975، اعتبر القناة مركز النقل الأول عالميا وطالب بتوسيعها لاستيعاب الناقلات العملاقة، وهو ما تم بالفعل في مشروع ازدواج العمر الملاحي، حتى أن السيسي ذكره بالاسم خلال كلمته في حفل افتتاح المشروع، قائلا "ها هي نبوة جمال حمدان تتحقق".

تكرر الأمر ذاته في كتابه "سيناء في الاستراتيجية والسياسة والجغرافيا"، والذي يضع تحدي التعمير في مستوى التحديات العسكرية، وطالب بتدشين سلسلة اتفاقات تحت قناة السويس تحمل شرايين المواصلات البرية، ومد السكك الحديدية إليها. فالفرغ العمراني جعلها أرضا جاهزة للعدوان، وجعل الأعداء يشككون في مصيرتها، ويطمعون فيها بصورة أو بأخرى، بمحاولة الضم أو السلب أو العزل.

ويبدو أن الحكومة لا تدخر جهدا لتنفيذ تلك الرؤية. ففي نوفمبر الماضي، افتتحت ثلاثة اتفاقات عملاقة تربط مدينة بورسعيد بسيينا استغرق تنفيذها

محمد عبدالهادي
كاتب مصري

اختار معرض القاهرة الدولي للكتاب المفكر جمال حمدان كشخصية العام الثقافية، لتمثال صورته للمصقات الدعائية للدورة الحالية التي تستمر في الفترة من 22 يناير الجاري وحتى الرابع من فبراير المقبل، وتشهد غالبية كتبه طبعا مكتفة بأسعار مخفضة تناسب غالبية الدخول. ويحصل الاحتفاء غير المعتاد، الذي وصل إلى درجة طرح الهيئة العامة للكتاب، وهي جهة حكومية، قصة مصورة "كوميكس" للأطفال عن شخصية حمدان، العديد من التاويلات السياسية حول مساحات التلاقي والاختلاف بين أفكاره والخطط التنموية للحكومة المصرية، وتغير سياستها الخارجية، في معرض تحمل نسخته الجديدة شعار "مصر.. أفريقيًا.. ثقافة التنوع".

ربما يرتبط هذا الاهتمام الرسمي المستجد بتلميح غير مباشر من الرئيس المصري عبدالفتاح السيسي، الذي أكد لرؤساء تحرير الصحف الحكومية، في حوار مشترك قبل شهر، أنه يعود من حين آخر لقراءة كتاب "شخصية مصر"، أشهر مؤلفات حمدان وأبرزها، وباعتباره يضم حلا واضحا وجليا للعديد من المشكلات التي تشهدها مصر خلال العصر الحالي.

عائد من العزلة

لم يحظ حمدان، المولود بقرية ناي بمحافظة القليوبية المتاخمة للقاهرة عام 1928، بتقدير خلال حياته فعاش في عزلة تامة داخل وحدة سكنية لا تتجاوز غرفتين باناث منهاك حتى وفاته عام 1993، في حريق غامض لا يزال سببه مجهولا حتى الآن، مع تكهات دارت حول تعرضه للاغتيال بعد اختفاء مسودة كتاب كان يصعد تسليمه لأحد الناشرين حول "اليهودية والصهيونية".

وتملك كتابات حمدان ميزة استثنائية تجعله مختلفا عن باقي الجغرافيين تتعلق بأسلوبه وطريقة العرض، فلغته جزلة، تتسم بالبلاغة الكلاسيكية، فلا تخلو من المحسنات الأدبية والتركييب، وبما يرتبط بحفظه القرآن وتجويده على يد والده المعلم الأزهرى، فضلا، وهذا هو الأهم، عن وعيه بجسد الجغرافيا والسياسة، ومنجزه اللافت في حقل الجغرافيا السياسية. وقد تعامل حمدان



الهيئة العامة للكتاب، وهي جهة حكومية، تطرح قصة مصورة "كوميكس" للأطفال عن شخصية حمدان، تثير العديد من التاويلات السياسية حول مساحات التلاقي والاختلاف بين أفكاره والخطط التنموية للحكومة المصرية وتغير سياستها الخارجية